المحور الأوّل

تجليات الذاكرة والمعنى الأدبيّ للطفولة

س1: تمثّل الطفولة نبعاً سردياً مثيراً لدى أكثر كتّاب العالم، لكنني بحكم تجربتي الشخصية أرى أنّ هذا التمثّل أحياناً مبالغ فيها، ويحتمل حالة الافتعال وإسقاط الوعي الحالي للكاتب على مرحلة الطفولة، ولعلّها كما ظهرت في روايتك (أرضٌ أكثر جمالاً) فقد جاءت على نحو موضوعيّ مناسب، لكنها لا تحتمل أكثر من ذلك، ما رأيك استناداً إلى جوهر تجربتك؟

ج 1: لا يمكن أن نتحدث عن مرحلة الطفولة كخصوصية مأزقية تشبه حالة الجنون أو مسألة تصنيع صورة فانتازية لا تقبل العقلنة ولا تحتمل المقاربة. إن كل ما تختزله الطفولة لا يعدو غير خطوة صغيرة بطيئة في مسار تكون الفرد داخل عمر الكون وليس عمره الزماني الخاص، إن العمر الحقيقي الذي يتشكل عند الإنسان هو مجمل ما تراكم لديه من مخلفات الحياة من لحظة نشوئها الأولى، لهذا افترض بأنه يجب الفصل بين هذين المديين الطفولة الخاصة حيث أتفق معك بأن التمثل بها مبالغ فيه إلى حد ما، لكن ما يجعل له خصوصيته ولاسيما في الكتابة الإبداعية هو أن هذه الطفولة لا تعدو غير امتداد لطفولة العالم الذي تكون في داخله الكاتب.

لطفولتي مثلما لطفولة كل من ورد نبع طفولته وأسهب في سردها أثر لم يتشكل من إسقاط الوعي عليه وحسب، بل أيضاً من خلال تلبس هذه الطفولة بمخزون حميم جمعه من وثائق قيلت له ولم يقرأها ممن هم أكبر منه سناً، ومن عاشوه وعرفوه وظلوا واعين لتلك المرحلة ونقلوها له أو لمحيطيه من دون تخطيط أو قصدية، هي حالة شرطية لإثارة الوعي وتحريض الفكر والرؤية ومكامن الثقافة.

يمكن أن أوضح رأيي أكثر بأن أقول إن الميلاد يعني الطفولة في أعمق أعماقها، فقد ظلت حالة الميلاد لزمن قريب تُعرف بمناسبة إنسانية أو بحادثة في الطبيعة. كان يقال إن فلان وُلد سنة الهزة الكبيرة، أو عند دخول الصهاينة فلسطين، أو عند موت فلان. هذا ما أعنيه في ذاكرة الطفولة التي لا يمكن إلا أن تكون حاضرة في وجدان الناس حتى وإن لم يقطوها على عمل إبداعي ما، لكن الكاتب يستعملها بدهاء وحنكة حتى أنه يؤثر في القارئ وكأنه ينومه مغناطيسياً ويرحل به إلى أعماق لا شعوره، ويتركه هناك يحياه مرة أخرى لكن بوعي هذه المرة، أو لنقل بقدرة على التذكر.

معايشة الطفولة اليوم صارت أكثر خصباً، فأنت ترى إن ولدت مع الحضارة صورك وأنت في رحم أمك، وترى لحظة ولادتك في شريط فيديو، وتراقب تطور

أيامك وسنواتك الأولى سنوات الطفولة لحظة بلحظة، هذه المعايشة يدفعها خيالك ووعيك للتمثل فيها وفي حضورها، ولا بد ككاتب إلا أن تعاينها في وعيك وتسقطه عليها هذا إن كنت لا ترغب أساساً في الهرب منه. هل كتب الكثيرون من نبع الطفولة إلا للولوج بقوة إلى الحاضر؟ إن هذا النبع هو خطوة البداية لأنها لا بد أن تكون.

لقد شاهدت فيلماً يحكي عن كائن يولد عجوزاً ثم تبدأ مراحل عمره بالتراجع ففي منتصف العمر يصبح شاباً وفي أخره يغدو طفلاً، فأيّ دلالة يمكن أن تحملها هذه الفكرة عند معاينة أثر الطفولة في الأدب. إن البحوث الطبية والعلمية تحكي عن عودة الإنسان في هرمه وشيخوخته إلى الطفولة الأولى أليس هذا حديث يحكي عن حالة دوران وليس ارتقاء؟ إن ما يكتب وما يسرد من منبع الطفولة هو نقطة فاصلة في الحالة الحاضرة التي يعيشها المؤلف فمن هنا تأتي المبالغة، والمبالغة ليس بالضرورة أن تكون مظهراً سلبياً فهي إن كانت مؤلفة بصيغة جمالية عالية وبأناقة لافته وتخلو من التكرار فهي حالة مقبولة.

فلنبالغ في العشق والغناء والفرح هذه ضرورات تلزم لاستمرار جنسنا البشري نحن طبقة المعذبين والمهجرين عن أوطاننا، والمستعملين من قبل الطبقات البرجوازية والفاسدة والأنظمة وأميركا مثل أحذيتهم.

أنا أرى بأنني في استحضار طفولتي في رواية "أرض أكثر جمالاً" كنت أستحضر طفولة مدينة عمان، لا أعرف كيف يمكن أن أفصل بين طفولتينا أنا وهي، لكن أقدر أن أقرأ المسألة كحالة جدلية جمعتنا وأبعدتنا في آن معاً، هناك قيمة جمالية لا يحسها سوى الراوي عندما يجد أنه قد ملك الأداة التي تجعله يحكم زمانه مثلما يحب وليس مثلما فُرض عليه أن يعيشه، قد يكون في هذا الفعل حالة استشفاء خاصة عند أناس مثلي كانت طفولتهم حالة بؤس وشقاء دائمين. من هنا فأني أرى أن ما جعلك تبدو في سؤالك غير راض عن تمثّل الطفولة كنبع سردي لكتّاب العالم هو ما يدفعني للاتفاق معك، لأنه من المفترض بهذا النبع أن يكون فيه ما يستحق أن يُشرب، وأن يكون متميزاً وأكثر جمالاً.

س2: الطفولة الذات، المكان، الحال، الأسرة (الأم والأب)، المحيط، الأصدقاء، اللهو واللعب الطفوليّ، المدرسة، التطلّع، الأخطاء، التحوّلات الأولى جسدياً وروحياً، الأحداث المركزية التي لا تنمحي، الفرح، العيد، الموت، الأحلام... هل بقي منها ما يمكن أن يؤرّقك حتى الآن شكلاً أو طيفاً أو قيمة، ويبحث عن مكان له في نصوصك؟

ج 2: أنا إنسان يملك ذاكرة سيئة للغاية إذ إنني لا أنسى شيئاً، كل ما سألت عنه أذكره وأعرف أدق تفاصيله للأسف.

إن المرار والخطر لا يتأتى مما تبقى في الوعي والذاكرة فهي مسألة يمكن أن أقول بتواضع إني قادر على تدجينها وعن كبحها حين تؤرقني ، فهي صارت عندي مقرّة ومشروحة ومبررة كلما تعاملت معها عندما تداهمني، هذه الذكريات لم يعد فيها ما يُتعب قد يكون هذا بناءً على قرار بأني لن أسمح لوجع وبؤس الماضي أن يؤلمني بقدر ما كان يؤلمني معايشته، العقدة تكمن في نقطة الدماغ غير الواعية التي تسكن فيها هذه المرحلة من العمر فهي التي تسطرتني وترسمتني على هذه الصورة من دون أن أعرف كيف. وهي التي من الممكن أن تؤثر أو أثرت فيما أكتبه، الكتابة تستفز الكاتب كله وتستفز كل ما فيه حتى تلك التي لا تُحس ولا يعيها الكاتب في صحوه فتتدخل في إسقاط النص على الورق، وعندما يعود الكاتب لقراءتها يفاجأ بأشياء يشك بأنه هو من كتبها، ولولا عدم إيمان كاتب مثلي بشيطانه الشاعر أو الجني الذي يتلبسه لقلت إن لي جنية هي التي تملي علي بعض ما أكتب. هذا الغريب كله يُستحضر من مخزون اللا شعور، وأنا أثق بمادية اللاشعور وصيرورته ووجوده.

لطالما كتبت نصاً لم يكن أمره كائناً ومتجسداً من خلال وعيي إلا من ضرورة يفرضها النص أو الحدث من غير أن يترك عندي في أثناء الكتابة أي أثر عاطفي، لكني عندما أعود لقراءته أجد فيه ما يطرق بقوة على خزان عواطفي، فلطالما بكيت عند مشهد أو مقطع أو حوار في قصة كتبتها أو لربما ضحكت أو سخطت على شخصيتي التي صنعتها أو عشقتها. كأنها حالة لقاء وتعارف بين غريبين أنا والنص، أو كأني ألتقي به للمرة الأولى . لو سألت نفسي من أين تأتي هذه الحالة ولطالما فعلت وكنت أجيب بأن هذا هو مخزونك يا قلم غير المتحرك في داخلك عندما يقرر هو أن يتحرك ويبرز.

طفولتي حالة عجائبية، أتذكر فيما أتذكر أني جئت من العدم إلى أسرة وبيت فيه ما يمكن أن يجعل الحياة حلوة وطيعة لأن يقبلها الإنسان من دون اعتراض، بل قد يحسده محيطوه على النعم التي يعيشها فهو في بيت تدار فيه الوجبات الثلاث كل يوم مثلما يليق بالبشر، كنا نكتسي بملابس جديدة في كل عيد، ولا نرى أن المشاركة في رحلة مدرسية حالة تعجيزية، أو في حضور السيرك الهندي الذي كان يأتي إلى عمان في منطقة العبدلي كل عام إسراف لا مبرر له، أو أن تلبس أمي ملابس جميلة أنيقة وتضع عطر فرنسي، أو أن يقصد أبي بيروت كل شهر لقضاء إجازة نهاية الأسبوع وهو يصطحب معه أخوتي الكبار ويعودون محملين بالهدايا والألعاب والشوكلاته التي نشارك بها أولاد الجيران، هذه أشياء لا زلت أتذكرها بتفاصيلها الصغيرة، لعبة القطار الذي يتحرك بالبطارية ويخرج دخاناً من فوهة أنيقة فيه، وطعم الشوكلاته المدهش الذي كانت تصنعه محلات دمشق وبيروت.

أن يختفي كل هذا فجأة ويحل مكانه القحط حالة لا يمكن أن تُحتمل، فلو أنا لم نخبر مثل هذه الرفاهية وكنا قد جئنا لبيت متوسط أو فقير لكنا تحملنا ما جرى معنا بعد ذلك.

كنت في الثامنة من عمري عندما اختفى أبي من حياتنا وتركنا عشرة، سبعة أولاد وثلاث بنات وأمهم، أكبرنا كان عمره لمّا يتجاوز العشرين بعد، ولم يكن يتقن عمل شيء غير مهنة أبيه العمل في إطارات السيارات، وعلى الرغم من أن أبي قد ترك كراجاً كبيراً يشتغل في العجلات والإطارات إلا أن أخوتي الكبار اختاروا العمل بمجال أخر فتركوا هذا الكراج، حاولت أن أعمل به لكنني لم أتقن عملي حتى أني لم أكن قادر على معالجة "بنشر. ثقب" في عجلة دراجة هوائية.

لم يعد لدينا ما يعيل غير بضع قروش يعطيها الأخ الأكبر لأمي إن فاضت عن حاجته، وبيع عفش البيت. الجزء الثاني والصورة التراجيدية هذه كانت في المرحلة التي يتشكل فيها الإنسان فقد استمرت معي من عمر الثماني سنوات حتى الثامنة عشرة، لا أتذكر أني عبّرت عما يسمى بسن المراهقة مثل أبناء جيلي، ولا أتذكر أني قد تحسرت على ما مضى من العمر ولم أكره أبي.

كل هذا لم يؤرقني ولم يترك في ذاتيَ أثراً واعياً، أنت من حركته في الآن بسؤالك هذا، لا أعرف شيئاً كثيراً عن نفسي غير أن الماضي لا يعني "لوعيي" شيئاً فأنا أرى أن الماضي أتفه من أن يحكم حاضري مهما كانت صورته ولا على أي شكل كان، لم أتحسر أبداً على أي زمان أو شيء خرج من عمري وخسرته، أعتقد أن التهالك بالبكاء على الماضي هو تعبير عن الضعف والانكسار في مواجهة الحاضر، وأنا لم أكن أبداً ضعيفاً أو منكسراً في مواجهة حاضري.

لا أرى أنه لا يزال عندي شيء مختزن في ذاكرتي يمكن أن يؤرقني أو أن يجد له مكاناً في نصوصي القادمة، لقد أفرغت جعبتي في قصص وروايتيّ البدايات "ماري روز تعبر مدينة الشمس وأرض أكثر جمالاً"، لو لم تكن مثل هذه الأحداث التي كتبتها تستحق الكتابة لعموميتها وليس لذاتيتي لها خصوصية إبداعية لما تطرقت لها فيما كتبت، تحضرني الآن قصص مثل قصة (المعطف)، وقصة (الخاتم) هذه الأخيرة كانت ضمن مجموعة قصص "مقدمات لزمن الحرب" التي صدرت في سنة 1982، أما (المعطف) فقد نُشرت في أكثر من مكان ولكن ليس ضمن مجموعة قصصية. غير ذلك لا أتذكر أني كتبت شيئاً، مع أني قد كتبت الكثير عن قصص التقطها في هذه المرحلة لكني لم أكن قد عايشتها أو جربتها شخصياً، فيما يبدو إنّ موقفي من الماضي كان موقفاً مبدئياً لم اتخذه عن قرار وبوعي واضح.

على الرغم من معايشتي لمعارك الجيش والمقاومة في السبعين من القرن الماضي وتصميمي على الكتابة عن هذه المعارك، حتى أؤكد موقفي منها بأنها بالمطلق لم تكن حرباً بين الفلسطنيين والأردنيين مثلما يرغب بعض العملاء والخونة

بتـ□ميتها، إلا أنني لم أتعرّض فيما كتبته وهذا كان في روايتي "أرض أكثر جمالاً، وعمان ورد أخير" لمعايشتي الشخصية لهذه الحالة إلا بمقطع صغير حدث معي بالفعل، وهو فقداني لصوتي لفترة زادت عن الشهر بعد أن هربت من أمام دبابة من دبابات الجيش ورأيت الجندي الواقف فوق المدفع الرشاش، الذي فيما يبدو قد لاحظ بأنني فتىً صغير وغير مـ□لح فأطلق صلية من رشاشه فوق رأ□ي لكي يرهبني ويدفعني للهرب، فارتهبت وهربت وهرب صوتي مني لمدة شهر.

وأعترف بأن ما هو باق ولا □تطيع أن أحاكمه أو اتبرأ منه هو الهاجس الجبـ□ي الذي ما زلت أعيشه، يقيناً بأنني مثل كل البشر وعلى الرغم من ما نمرّ به من تجارب في الحياة في حالات الجنس لا تعدو غير الرغبة الأثيرة في □ترجاع المتعة الأولى، ولا أقصد التجربة الأولى واللذة الأولى بغض النظر عن الآلية التي حدثت بها بل لحظة النشوة الأولى التي تـ□عى في كل تجاربنا اللاحقة إلى □تحضارها، و□تحضار حالة التماهي الـ□احرة التي تعلقت فيها أرواحنا مع أجـ□ادنا و□مت بهما فيها تلك اللحظة.

كلنا بلا شك نتذكر تجارب ممتعة لكنها لا تظل عالقة بتفاصيلها الـ□احرة فينا بقدر تعلق المرة الأولى فينا، وهي تدفعنا للبحث عنها في كل تجاربنا الآتية.هي حالة تشبه الدهشة الأولى التي حكى عنها الفلا□فة.

هذا ما هو باق من طفولتي لكنه ليس مؤرقاً بل محفزاً □احراً للبقاء.

س3: تنازع المكان الطفوليّ بين فلسطين والأردن تنازع أصيل لا بدّ منه، إلى أيّ مدى تشعر بأنّ هذا التنازع يتّجه عندك باتجاه تثمير الكتابة وتخصيبها؟ وهل استطاع المكان الأردنيّ على صعيد الإحساس والتوافق أن يكون بديلاً للمكان الفلسطينيّ عيشاً وكتابةً؟

ج 3: أنا لا أنظر إلى مـ□ألة فلـ□طينيتي على أنها حالة منفصلة عن أردنيتي، لقد نلت شرف أن ولدتني أمي في فلـ□طين في مدينة بـ□لة □مها جنين، لكن هذا كان ليس لكوننا نعيش في فلـ□طين آنذاك فأبي كان لاجئاً في عمان بعد أن غادر حيفا مكان عمله أثر احتلال فلـ□طين من قبل الصهاينة في العام 1948، وكان يعمل في عمان ولظروفه المادية الجيدة آنذاك ولوجود مـ□تشفى متخصص نـ□ائياً لدكتور □مه خالد مطيع، فقد كان الكثيرون من المقتدرين يأخذون نـ□اءهم للعلاج والولاده في هذا المـ□تشفى □واءً كانوا فلـ□طينين أو أردنيين، وقد ولدتني أمي هناك، وبالتأكيد أنها قد عادت بي بعد ذلك طفلاً إلى عمان حيث تعيش وما زلت أ□كن فيها.

إن مـ□ألة فلـ□طينيتي مرـ□خة في أكثر من كوني فلـ□طيني الأصل والميلاد بكوني إنـ□ان تقدمي وتحرري ومع قضايا جميع الشعوب المضطهدة، فأنا ضد احتلال العراق من الأميركان بذات القوة، وضد □تعباد الشعوب بنفس القوة، إن إحتلال فلـ□طين يعتبر أخر احتلال ما يزال قائماً على الأرض، أؤمن بأن كل إنـ□ان

حرُ وتقدمي على هذه الأرض هو ضد الصهيونية ومع تحرير فلـطين وطرد هؤلاء المغتصبين منها، كون هذا البلد هو أخر بلد مُـتعمر على الأرض، هذه المـألة تشير إلى طبيعة هذا المُـتعمر.

إن الكيان الإـرائيلي الذي ما يزال يمارس فعلاً غير حضاري، وغير موجود أو ممارس إلا منه على كوكب الأرض الآن يؤكد أن هذا الكيان كيان غير إنـاني وغير حضاري، على عكس ما يروج لنفـه أو ما تروج لـه أميركا وأوروبا وبعض العرب اليوم، فكل إنـان تقدمي ومتحضر ومع قضايا التحرر الوطني لا بد أن يكون فلـطينياً ولكوني كذلك ولأنني أرفض فكرة أن يُـرق ما يملكه الآخر بالقوة أو حتى بالخديعة فأنني أُومن بأن الكيان الصهيوني الغاصب كيان متخلف وغير حضاري، وإن فقد أي شعب أو أية أمة مفهوم أنه حضاري فإنه يفقد كل مقومات وجوده ويصبح خارجاً عن الزمان ونائياً عن العالم.

أتذكر دائماً مقطع من قصيدة رائعة للعظيم مظفر النواب يتحدث عن التعذيب في الـجن في أحد المعتقلات العربية الكثيرة حـب ما أذكر من النص يقول:

" قال الحزب تحمل، فتحملت.
قال الشعب تحمل، فتحملت.
قال الرب تحمل فتحملت، تحملت.
وهبت نسمات أعرف كيف أفيق عليها،
ولاح وجه فلسطين تلك المتكبرة الثكلى تأتي حين يُعذب أي غريب ".

إن هذا الموقف بالنـبة لي مـألة إنـانية عامة وتفاعلي معها ومعايشتها يأتي من موقفي التقدمي والثوري أولا ومن كوني مؤمنا بجميع قضايا التحرر الوطني في العالم لجميع الشعوب المُـتعمرة والمُـتعبدة. أما الجانب الأخر الذي يجعلني أكثر تطرفاً فهو أني متضرر فعلياً من واقع احتلال وطني وبلدي وتاريخي، لذا فأنا كائن مـتلب من أبـط حقوقي البشرية .

إن المكان الذي احتواني بعد الشتات طالما هو بلد عربي فهو وطني، لا أحكي يـة هنا بل أؤكد على أنني واحد من بنية المجتمع الأردني وتشكلي فيه زاد من تكريس هويتي الفلـطينية، ليس هناك تناقض في ذاتي أو هويتي أن وجودي في الأردن هو وجود يمكن أن أعيشه أو أتعايش معه حتى لو كانت فلـطين محررة، لا أجد عناءً في انتمائي للبلد لأن البلد هي الناس التي تعيش فيها والناس التي صرت منها مثلما صارت هي مني، انتمائي هو انتماء مثل انتماء أي عربي تقدمي للشعوب العربية وليس للأنظمة.

أنا معني بما أكتب بمـألة هي المحرك لمعاناتنا كفلـطينيين مثلما هي محرك معاناة الناس كلها، مـألة التحكم الطبقي، والقمع، وخنق الحريات. فالفلـطينيون

والأردنيون بتشكيلتهم المندمجة الواحدة،هم أبطال أعمالي كلها، رواية" عمان ورد أخير التي تتحدث عن أيلول 70 كما أخبرتك من قبل، بطلاها أو شخصيتاها الرئيستان احداها أردني من مادبا والأخر فلسطيني ، لكن يصعب على القارئ أن يجد فاصلاً واحداً يفصلهما عن بعض مثلما لم أقدر أنا على اكتشاف هذا الفاصل، وفي رواية "ماري روز تعبر مدينة الشمس"، البطل الرئيسي المطارد أردني والمرأة التي معه فلسطينية لم أكن أتطرق لهذا الفصل تقصداً بل لضرورة فنية يفرضها الحدث، وهذا أمر يسهل تأكيده من قراءة هذين العملين. أتحدث عن هاتين الروايتين على سبيل المثال لأن شخوصي كلهم في كل أعمالي هم مزيج لا يمكن فصله للأردني أو الفلسطيني..

س4: هل أوحت لك طفولتك بأيّ شكل من الأشكال بأنك ستكون كاتباً في يوم ما؟ وكيف؟ هل ثمة علامات محدّدة؟

ج 4: يربض في داخل كل واحد منا نحن البشر كاتب متأهب للانطلاق من ذواتنا، كلنا نكبح هذا الانطلاق أو البروز لأننا نخاف من أشياء مبهمة فنكتفي بالكلام، فالكلام ليس موثقاً ولا مثبتاً إلا في حال تقدم العلم وصار قادراً على جمع مادته الهاربة في ملكوت كرتنا الأرضية كونه مادة لا تفنى.

كلنا نخاف من توثيق مشاعرنا وعواطفنا وإيماناتنا الخاصة وأفكارنا الصغيرة وأسرارنا لأننا نخاف من الأخر. كلنا نحتفظ بكم هائل من الأفكار التي نعيش بها ونتحرك ونتعامل مع الآخرين بموجبها لكنا نخاف من إثبات ذلك.

أشكّ بأنّ هناك عاشقاً لم يكتب أو يؤلف شيئاً في العشق وفيما تختزل فيه من مشاعر تجاه معشوقه، المعضلة بأن بعضنا يُري معشوقه ما يكتبه فيه وآخرون يبقونه لأنفسهم. وكذلك في حالات الفرح أو الحزن الكتابة تكون أعلى صوتاً من النواح في حال الحزن، فمن يكتب عما يحس به تجاه فقد عزيز على ورقة يملؤها بالخرطشات والحروف يشعر براحة أعظم من راحته في البكاء، كلنا نكتب، بعضنا يتعمل الورق وآخرون يكتبون على جدران صدورهم.

الكتابة هي جرأة المواجه. والكتابة المكشوفة والثائرة والصارخة هي بطولة ومغامرة، وأنا ليست بطلاً ولكنني مغامر لذلك أكتب وأنشر ما أكتبه.

ليست باحثاً في كيف يكون الكاتب ولماذا يكتب، لكن بتجربتي الخاصة فأنا أرى أن الكتابة هي حالة بوح بصوت عال، وهي صرخة ليزا مينالي في فيلم كبارية تحت قنطرة القطار لإخراج الفزع الصامت من خمسينين من حكم النازي، وهي مشهد الفنان الأردني المرحوم أسامة المشيني الذي جسد شخصية عروة بن الورد لحظة شاهد رجلاً يدفن طفلته وهي حية عندما صرخ أريد أن أعوي كالذئاب.

أنا كنت أعوى فوق الورق كلما رأيت أمي تبكي من العجز وقلة الحيلة في□د أفواهنا الجائعة، أو عند□ماعها أغنية تحكي عن الفراق، وكنت أصرخ كلما أفرغ شقيقي الأكبر فينا نحن الصغار قهره من الحاجة لارتداء بنطال لا تكون رقعه كثيرة، أو عندما يقرر أقرانه الذهاب لمشاهدة فيلم□ينما من دون أن يكون يملك ثمن التذكرة لمشاركتهم، أو عندما تخرج أختي الكبيرة لقمة الطعام من فمها وتدير ظهرها لي كي لا أراها وهي تجهل أن صورتها كانت معكو□ة على مرآة صغيرة متهالكة معلقة على جدار البيت لتطعمني إياها. كنت أكتب وحـ□ب.

أول قصة كتبتها ولا زلت أحتفظ بها كانت إعلان رفض □لوكيات أخي الكبير تجاهنا عندما كان معنياً بذاته، وهو الذي من الممكن أن يكون المعيل الوحيد لنا عندما نراه وهو يأكل وحده قطعة جبن أو بيضتين يطهيهما بال□من، فنشمّ الرائحة التي تزيد من عواء أحشائنا الجائعة من غير أن يلتفت نحونا نحن العجزة الصغار. القصة كانت عن حياة بعيدة لا تشبه الحياة التي نعيش وأ□ماء شخوصها كانت أجنبية ولي□ت عربية، والأحداث لم تكن متشابهة لكنها كانت كلها تحمل دلالات ما نعيشه مع هذا الأخ.

الطريف في الم□ألة هو ما تكشّف لي الآن وأنا أجيب على هذا ال□ؤال وهو أن □تخدامي لأ□ماء أجنبية وتغييري للمكان والشخوص كان كله محاولات للهرب من علقة قا□ية يمكن أن أتلقاها من هذا الأخ لو حدث ووقعت قصتي بين يديه، لقد دفعني الخوف إلى اللجوء نحو الرمزية وهذا ما حدث معي بعد □نوات طويلة عندما كنت أحاول الهرب من تحت مقص الرقيب في الحكومة، أو من مقصّ المحرر الثقافي لجريدة أو مجلة أ□عى إلى نشر قصة فيها الذي كان يمارس فعل ال□لطة لكن دون قمع عندما يقرر أن هذا يمكن نشره وهذا لا يمكن، وأعتقد أنه في ظل (هذه الحريات) صنعنا نحن الكتاب رقيباً يحمل مقصاً يظل جاثماً فوق رؤو□نا يقص ما لا يجوز نشره لكن بأيدينا نحن وبأقلامنا.

ما الذي دفعني لنشر ما أكتبه؟ من الممكن أن يكون حب المغامرة فقط، لم أكن أخاف من إ□ماع صوتي لأحد ولم أكن معنياً بالبروز مثلما ما زلت عليه حتى اليوم، كل ما هنالك أنني في كل مرة أزداد يقيناً بأنني أكتب لنف□ي، وكأن نف□ي هذه لي□ت شيئاً متمثلاً بشخص واحد هو أنا، بل هي كل النفوس المحيطة بي فكرت أن أكتب لنف□ي الجمعية، أر□لت واحدة من القصص القصيرة الكثيرة التي كنت أكتبها وأخبئها في دفاتري لجريدة الرأي كان يرأس تحرير الصفحة الثقافية وقتها الأديب الأردني الجميل فخري قعوار، أر□لت القصة مرفقة بر□الة امتداح للجريدة والقائمين عليها وانتظرت أن أقرأ □مي في بريد القراء وكان هذا أقصى طموحي أن تصلني ر□الة في قاع ملحق الثقافة تقول "بداية واعدة، واصل محاولاتك"، بالتأكيد لم أكن أملك ثمن الجريدة في ذلك الوقت فكنت أتجه لمكتبة أمانة العاصمة كل يوم ثلاثاء يوم

صدور الملحق، وأسرع في تقليب صفحات الجريدة أبحث عن الملحق الثقافي وأول ما تهبط عليه عيناي كان زاوية "بريد القراء"، وفي كل مرة كنت أرجع خائباً ماشياً إلى بيتنا في جبل التاج، إلى أن لاح ذاك الثلاثاء، كان ذلك في العام 1973 وكنت قد فقدت الأمل ولم أعد حتى أحلم برسالة المجاملة التي تقول "واصل محاولاتك"، في ذلك الثلاثاء كنت راكباً في الباص لمناسبة لا أتذكرها فأنا كنت معتاداً على المشي وركوب الباص الذي كان يكلف تعريفة "نصف قرش" لم يكن مسهلاً، كنت جالساً خلف رجل يقرأ بالجريدة، يقلب الصفحات ويبحث عما يقرأه حتى يقطع المسافة الطويلة للبلد عندما فتح على ملحق الثقافة، لم أكن أصدق عيني فقد كان مكتوب رأس الصفحة "بيدر الحزن الفلسطيني" قصة قصيرة قلم محمد توفيق.

فخري قعوار هو من اختصر اسمي ليصبح قلم توفيق.

س5: ما الذي تبقّى من طفولتك مما يمكن أن تفخر فيه، وما الذي تبقّى منها مما يخجلك ويدعوك إلى الرغبة العميقة في نسيانه؟ وهل تجلّى ذلك في كتاباتك القصصية والروائية على نحو من الأنحاء؟

ج5: لا أفخر بشيء من عمري قدر ما أفرح لتذكر أمر ما أو أشعر بتغريب المصادفة التي قلبت حياتي كاملة عند نقطة محورية جعلتني على ما أنا عليه الآن.

أنا إنسان لا يؤمن بالحظ ولا بالقدرية أفهم أن الأشياء كلها تمضي على وفق معايير تتجمع وتخلق اللحظة. أنا أميل إلى مفهوم المصادفة، أجدها أقرب إلى العقل والواقع، لا أحب أن ألقي على ما يسمى بحسن الحظ شرف تحقق ما تحقق معي فمجمل ما حدث لعمري كان حسناً وكان قبيحاً أيضاً، عبارة حسن الحظ هذه عبارة كسولة وبليدة واتكالية، من سوء حظي أنني نجوت من الموت حباً ومن حسن حظي أنني ما زلت حياً لأدخل في التجربة على رأي درويش، ما يفرحني هو الحالة الإعجازية التي استطعت فيها أن أخرج من ثقافة وفلسفة البيئة التي نشأت فيها لأكون على ما أنا كائن عليه الآن. ليس حسن حظي هو ما جعلني أكمل دراستي الجامعية فكل الظروف التي كانت تقف حائلاً دون ذلك استطعت أن أتجاوزها، ففي الوقت الذي كنت فيه آخر طالب في العلامات نسميها بالعامية عندنا "ألطش" في سنة ما قبل الثانوية فقد كنت الأخير بين أربعة وأربعين طالباً، وكنت أرافق صاحبين لي لحضور الدروس الخاصة التي يتلقيانها عند المدرسين الخصوصيين "للعلم المدرس الخصوصي ظاهرة قديمة فالمجتمعات التي تجعل التعليم أخر همها هي التي صنعت ثقافة المدرس الخصوصي، قد يكون هذا المصطلح غير مستعمل في المجتمعات المتقدمة". كنت أبقى منتظراً لصديقي تحت لهيب الشمس أو تحت المطر حتى ينتهيا لأنه كان من المستحيل أن أدفع دينارين لمدرس الإنجليزية أو الفيزياء لقاء الدرس الخصوصي الواحد.

وكان الأصعب علي أن أترك رفاق الحارة الذين لم أكن لأفترق عنهم إلا للنوم، كنت أنتظرهما وأنا أرى مدرس اللغة الإنجليزية حين شقير وهو يلقنهما الدرس ويراقبني من خلال نافذة بيته عندما يكلفهما بواجب ما وكأنه يتشمت من فقري، أو لربما كان يعتبر أن عدم مشاركتي دروسه الخصوصية كانت بخلاً فقد كان أستاذاً ورجلاً طيباً. في أوقات الانتظار تلك فكرت بما هو ألعن كيف أقدر على ترك صحابي يذهبان للجامعة وأظل أنا وحيداً من دونهما. في تلك اللحظات اتخذت قراراً بأن أقضي الوقت الذي يقضيانه في دروسهما الخصوصي بدرس خصوصي أعلمه لنفسي.

في نصف السنة الأول صرت مبرزاً والأول على طلبة الثانوية في المدرسة، مدير المدرسة لروحه الرحمة الأستاذ أحمد فريحات لم يكن يحبني فقد كان من جماعة الأخوان المسلمين وكان يرى أني شيوعياً، وكان ذلك قبل أن أنضم فعلياً للحزب الشيوعي الأردني، ولأنه يعرف تاريخي الأكاديمي وعندما ظهرت نتائج الامتحانات للنصف الأول من السنة طلب من جميع المعلمين إعادة احتساب معدلاتي وعلاماتي، وجاءت النهاية مخيبة لأماله فقد كنت الأول على صفوف الثانوية، وفي نهاية العام كنت من الأوائل على مستوى المملكة. هذا من أشيائي المفرحة، أما الأخرى المبكية فهي كثيرة لا أريد أن أستحضرها لكن أجد نفسي مدفوعاً للقول بأني عندما أحببت ليلة امتحانات الثانوية ذاتها التي نتكلم عنها من فراشي، حيث من المفترض أن أنام مبكراً في تلك الليلة لكي أستعد لصباح المواجهة مع هذا الامتحان الذي كان يحدد مصير حياتنا، دخل إلى مهجعي رجلان ضخمان واقتاداني إلى مركز الشرطة، تلقيت صفعات ولكمات حتى أنهكا ثم أعاداني مع الفجر إلى البيت. تحاملت طيلة فترة الامتحانات وبعدها أصبت بانتكاسة نفسية سببت لي شيئاً يشبه الانهيار العصبي حسب تحليل الطبيب الذي أشرف على علاجي.

هذا الأمر كان أثره محزناً في حياتي، صراعي مع ما سمّاه الطبيب الذي توفي شاباً سمير اللداوي استمر سنتين أو ثلاث كانت أصعب ما مر عليّ في حياتي، تجاوزت هذا المرض بإرادة عجيبة وبقراءتي عنه وعن طُرق علاجه. مثلما تجاوزت قبل ذلك حالة أن أكون متخلفاً دراسياً عن أصدقائي وأن أرضخ لقانون الفقر بأن لا أتمكن من إكمال دراستي الجامعية. هذا أمر مفرح أيضاً أتذكره.

لم أتأثر مباشرة بمجمل ما عشت في مرحلة الطفولة والصبا ولا أتذكر أني كتبت شيئاً عن كل هذا. ولا أخجل من شيء مرّ بي أو مارسته طيلة تلك الفترة، فقد كنت ابن جيلي وابن عصري وكل ما فيّ من خصوصية كان عاماً عند كل أترابي.

س6: هل القصة أم الرواية هي الأكثر قدرة على تمثّل ذكريات الطفولة وتوظيفها في تجربة الكتابة؟ ولماذا؟

ج 6: القصة إن تبعتها قصص تصير رواية، والرواية مجموعة قصص لكنها مرتبطة بلازمة واحدة ما يمكن أن يمثل ذكريات الطفولة ويوظفها في تجربة الكتابة هو الحالة أو الحدث أو الشخصية، فوجود محفز من هذه الثلاث للكتابة هو ما يجعل النص قصة أو رواية. ما زلت متيقناً من أن الكثير من قصص ماركيز هي ولادات من روايته الأشهر "مائة عام من العزلة" أو أنّ عدداً من قصصه القصيرة هي التي صنعت هذه الرواية، هذه ملاحظة قارئ لكن المتخصّص سوف يستطيع إثبات أو نفي ذلك.

القصة القصيرة أكثر تأثيراً في القارئ في تمثيل ذكريات الطفولة، فالوعي في هذه المرحلة لن يكون ناضجاً حتى يعطي للكاتب فسحة أوسع للاسترسال، وأحداثه أقصد أحداث هذه المرحلة تكون قصيرة في الذاكرة الطفلة حتى وإن كانت أحداثاً عظيمة، حزيران سنة 67 من القرن الماضي حدث هزّ عالمنا العربي ولا زلنا نعاني من هزائمه الارتدادية العميقة، ما أعيه منه وكان عمري ثلاث عشرة سنة هو محاولتي للنجاة من الطائرات الإسرائيلية التي كانت قبل ظُهر ذلك اليوم تستبيح سماء عمان كما تشاء، وتقصف مطار البلد الوحيد آنذاك (مطار ماركا)، هو أننا كنا نختبئ كل أهل الحارة في تسوية لبيت قديم، وكنت أنا أضع يداً فوق رأسي وأخرى تحت قلبي.

بعد أن انتهت تلك الغارة ضحك كل الجيران مني لأن منظري كان مضحكاً.
أنا كنت أحمي رأسي من سقوط السقف وأحمي قلبي من سقوطه على الأرض.

هذا ما أذكره، هل تحتمل هذه الحرب قصة أطول مما سردت لك الآن؟

ما يمكن أن يكون رواية في الكتابة عن مرحلة الطفولة لا تكون نصاً ذاتياً بل نصاً عاماً لمرحلة وأحداث وشخوص يجعل المؤلف محورها هذا الطفل، الأمثلة قليلة في ذاكرتي في الأدب العربي والعالمي، أتذكر أوليفر تويست وديفيد كبرفيلد لتشارلز دكنز، وتوم سوير لمارك توين على الرغم من أن الأخير كانت قصته أشبه بلعبة بوليسية لذلك أُلحقت بروايات أخرى بنفس العنوان، في العربية لا أتذكر أنني قرأت لنجيب محفوظ أو للطيب صالح أو غيرهما شيئاً من ذلك، تحضرني رواية واحدة ولا أدري إن كانت رواية أو سيرة لالياس خوري اسمها الجندب الحديدي. لذلك فأنا أميل للقول إن القصة القصيرة مكان أرحب لتمثل ذكريات الطفولة.

س7: ما هي الموجّهات التي زرعتها فيك طفولتك كي تنظر فيها إلى طفولة أبنائك؟ وكم من هذه الموجّهات تسلّل إلى ميدانك الكتابيّ بقوّة؟

لم أكن معنياً بالمطلق أن أعكس شقاء طفولتي على طفولة أبنائي مثلما لم أكن أحاول تشكيلهم بالهيئة التي تشكلت بها، فهم بلا شك مخلوقون لزمان غير زماننا، لا زالت حتى اللحظة تطرأ أحداث على حياتنا ويُفاجئوا بما كنت عليه وبما عايشته، منذ فترة قريبة مثلاً عرفوا أنني قد تطوعت للقتال في بيروت في حرب 1982 ليس

إمعاناً بالدلال بل لقناعتي بأنهم أبنائي على عكسي فأنا ابن رجل بأس عاندته الدنيا، إن ما حاولته معهم هو تعريفهم بمعنى أن تكون إنساناً صاحب مبدأ وصاحب موقف، وتملك القدرة على مواجهة العالم مثلما هو من حولك وبمفاجئته غير المحسوبة، إن تشكل هذا الفهم لديهم فإنه يستدعي بالضرورة أن يقاتلوا من أجله . هذا الفهم البسيط المجرد تشكلت عليه بكليتي كاتباً وإنساناً من دون أن افصلهما عن بعض.

س8: كم تعتقد حجم الحضور الطفوليّ في قصصك ورواياتك، ليس على مستوى الأحداث فقط، بل على مستوى القيمة والمعنى والعلامة والرؤية والإحساس وغيرها؟

ج8: ليس كثيراً، يمكن أن تراه في رواية "أرض أكثر جمالاً" بشكل طاغ، وفي رواية "الشندغة" بصورة أقل. في قصصي القصيرة طغت هذه الحالة على مجموعات كثيرة من القصص التي كتبت ونشرت سواءً في مجموعات أو في الجرائد والمجلات.

على مستوى القيمة والمعنى والإحساس أعتقد أنّ الحضور الطفولي قد تلبّس العديد من مؤلفاتي، فأنا لا زلت معترفاً بأن لهذه المرحلة من العمر الفضل في تدشين كلمة الأساس في العمل الإبداعي عندي في الكتابة سواء ذاك المتشكل بوعي أو المُسقط من اللاوعي دون إرادتي على النص.

س9: ألم تُغرك الكتابة للأطفال تعويضاً عن فقدانك للكثير من الأشياء في مرحلة الطفولة، كنوع من الانتقام بهذا النوع من الكتابة المثيرة؟

ج9: أنا أخاف من الكتابة للأطفال على الرغم من أنني أفترض بنفسي أني أمتلك المعرفة التي تكفيني للتعامل معهم، الطفولة حالة شفافة لا يقدر أي كائن على معالجتها من دون أن يكون ممتلكاً للأدوات الكافية والضرورية للتعامل معها، كل ما يُكتب عن الأطفال وللأطفال خاصة في عالمنا العربي لا يرتقي كثيراً عن مفهوم أن على الكاتب أن يتقن فن الطيران في مخيلة الطفل التي هي واسعة وفنتازية، أنا أرى أن هناك حساسيات أخرى مثل الخيال بل قد تكون أكثر أهمية منه وهو فهم نوع الخيال الذي يعيشه الطفل، ثم البيئة التي ينتمي لها، وكذلك حالته الإنسانية الخاصة، من عنده الملكة لهذا الفهم يحتاج أن يضع في آخر الأمر في حساباته بأن الطفل الذي تُهشم أسنانه الحليب من اللعب في الحارة، ليس هو ذات الطفل الذي يخبئ ضرسه المخلوع تحت الوسادة حتى تأخذه الـ tooth fairy "لا أعرف ماذا تُسمى بالعربية"، لتضع مكانه هدية.

إنّ الكتابة للأطفال مسؤولية عظيمة لا يفترض أن يقدم عليها أي كاتب لأن ما قد يتعلمه الطفل منها لا يمكن أن يناقشه أو يخالفه الرأي فيه، فهو عندما يتمكن من

امتلاك الكتاب يكون متيقناً بعد حالة الانبهار التي تتلب□ه من شكله ور□وماته وألوانه بأنه أمام حالة صادقة حتى في الدلالات التي يحتويها الكتاب، الأطفال في أوروبا وحتى عندنا يظلون لفترة متقدمة من العمر مؤمنين بأن بابا نويل ينزل من المدخنة ليلة رأس ال□نة ليجلب لهم الهدايا.

س10: حين تشرف الآن من جبل عال هو جبل العمر على طفولتك ماذا تريد أن ترى؟ وماذا تريد أن تستعيد لتعيشه من جديد بطريقة أخرى، وما الذي ضاع منك ومازلت حتى الآن ترغب باستعادته والحصول عليه؟

ج10: لا أريد أن أرى شيئاً من طفولتي غير أن أعيش تجربة المراهقة وحـ□ب فقد هربت هذه الفترة من عمري دون أن ألتقط منها شيئاً.